من حديث الثغر الحزين

للأستاذ عماد الدين عبد الحميد

في مثل هذه الأيام من كل صيف مضى ، كان الناس — أو قل كان من الناس من تسمح لهم مقدرتهم وأوقاتهم بقضاء أشهر أو أسابيع أو أيام مع عروس البحر الأبيض كما يدعونها — يرون الإسكندرية ، وقد بدت عروساً سعيدة في أكمل زينة وأبهى منظر

كان هؤلاء يلجأون إليها ، هاربين من حرارة الصيف لا يطيقونها ، يرجون عندها معاني الراحة والاطمئنان ، وينشدون فيها الهناءة والسعادة . فتتلقاهم الإسكندرية مرحبة بهم ، مكرمة لهم ، باذلة كل جهد لتكون عند حسن ظنهم بها ، غير مترددة في أن تظهر أمامهم — أو بهم — في صورة من الحرية المرحة أو السرور المطلق ، نازعة عنها قيود التقاليد الموروثة ، متحملة كثيراً من أنواع النقد اللاذع ، يتقاذفها نكضم هائج لا كوجها الهادىء ... حين تسرف في إكرامهم ، ولكن في ألوان المتعة الساخرة الساحرة !

كانوا يلجأون إليها في مثل هذه الأيام من كل صيف ، يقاسمونها ما وهبها الله من نعمة الطبيعة ، ويشاركونها فيما منحتها الطبيعة من سحر ، ولا أنكر أنهم كانوا يعطونها شيئاً ما مما أعطتهم الأيام ، ولكنهم كانوا أخيراً يتركونها إلى حيث يعودون جميعاً ، وقد بقيت وحدها حتى الصيف التالي رمزاً للعبث كما يراها بعض من الناس ، أو سورة لأمنية سعيدة في خيال بعض آخر لم تحقق له الأيام رجاءه من القدرة على أن يكون من روادها السعداء

يعودون ، لتستقبل جماعة منهم العمل ، ولتستقبل جماعة أخرى أنواعاً جديدة من لذة الشتاء ، وتبقى أذهان هؤلاء وأولئك ثملة برحلة الصيف ، سكرى بذكرياتها ، تستمد من تلك الذكريات الجميلة عوناً على قضاء الأيام حتى تستقبلهم الإسكندرية مرة أخرى ، طروباً ساخرة

***

إشهدوا الإسكندرية كرقصة مرحة صاخبة يأخذ كل قادر منها بنصيب ، ثم لا يهدأ إلا ليأخذ منها بنصيب جديد ... واسمعوها كأغنية عذبة طويلة من مطرب موهوب محبوب ، لا تكاد تنتهي حتى يرجو السامعون لو أعيدت من جديد ... وحتى بعد أن قضى على أنوارها الباهرة بأن تلبث ثوباً من الزرقة القاتمة منذ سنين . إسمعوها في الليل كقطعة موسيقية صامتة تلعبها أنامل طيف ماهر على أوتار القلوب !

إشهدوها واسمعوها كذلك ، ثم انظروها وقد لبست في هذا الصيف ثوب الحداد على شهداء أعزاء ... واسمعوها ، اسمعوا منها تلك الأغنية العذبة ، وقد تبدلت نجاة ، فإذا هي عويل وبكاء ... وأنصتوا لموسيقاها الصاخبة ، وقد أضحت لحناً حزيناً خافتاً بين الأطلال ...

إسألوا هؤلاء الذين كانوا بالأمس يسعون إليها هرباً من حرارة الجو ... ماذا قدموا لها اليوم حين سمت إليهم هرباً من جحيم الشيطان !

إسألوا هؤلاء ماذا قدموا من خير — وهم قادرون — للأمهات الحزينات فقدن العائل وتفقدن الأبناء !

إسألوهم ماذا قدموا من عون اليتامى ، وقد هاموا على وجوههم حائرين ، ضلوا سبيل الحياة !

إسألوهم ماذا قدموا من مالهم لمن صار محروماً !

إسألوهم ماذا قدموا من مقدرتهم لمن أصبح عاجزاً !

إسألوهم ماذا قدموا من قوتهم وصحتهم لمن صار ضعيفاً عليلاً !

إسألوهم ماذا قدموا من خبزهم للجياع ، وماذا قدموا من كسائهم للعرايا ... وماذا قدموا من دورهم للمشردين !

بل سلوهم ماذا قدموا من كلمة مواساة لهؤلاء ، علها أن تخفف شيئاً من وقع المصاب !

ترى هل يجيبون ... ؟ يقيناً أنهم لا يجدون الجواب !

فكم منهم ذكر الأسكندرية في محنتها بشيء ؟ وبأي شيء ذكرها هذا البعض القليل الذي ذكر ... ؟!

***

أيتها الدنيا : إنك لغادرة خادعة !